# مقام دراسة الشرق

## في معاهد الولايات المتحدة الاميركية

جاء في خطاب لاحد العلماء الاميركيين منذ سنوات ما خلاصه ان الغرب يغالي في الاهتمام بفكرة اتصلت به من القرون الوسطى ترمي الى جعل التاريخ القديم قائماً على صرحين هما صرح اليونان وصرح الرومان. ثم انهُ حدا متأدبة الامة الى نقض هذا القول الناقص لان لمصر وأشور وبابل وفينيقية ودول الحثيين والفرس والعبرانيين نصيباً اغر وأوفر من اليونان والرومان في تكوين العصور القديمة ولولا تحدر آثار هذه الشعوب الى فلاسفة الاغريق الذين تذوقوا طعمها وصبغوها بصبغتهم ثم اعطوها لاوروبة بواسطة الرومان لما كان لهذا الزمن ما يفاخر به من حضارة وعمران[1]

وان في الولايات المتحدة طائفة لا يستهان بها من جهابذة المستشرقين منصرفة الى دراسة الشرق درساً بعيد الغور، وحسب المرء ان يحضر اجتماعاتهم السنوية للوقوف على جهودهم الجبّارة في سبيل احياء ماضينا. وكان من حسن الطالع ان ضمتني جلسات الجمعية الاميركية الشرقية المنعقدة لسنتها المائة والسادسة والاربعين في مدينة فيلادلفيا في نيسان (أبريل) من الربيع المنصرم، فأعجبت بما لاحظته من رسوخ هؤلاء الباحثين الاعلام في معالجة الامور الشرقية لغوية وتاريخية وفلسفية وذهلت لما شاهدته من سعة اطلاعهم ونبض بيانهم في الاخذ بجميع المطالب العلمية ذات البال. وهم موفدون مما يزيد على مائة معهد وجمعية ومتحف منها امهات الجامعات والمتاحف الشهيرة والمكاتب الكبرى المنتشرة في طول البلاد وعرضها. ويوضح تضلعهم من العلوم الشرقية اختصاصهم الواسع فهذا مكبٌّ على اللغات السامية مثلاً وذلك اختصاصه اللغة البابلية (الاكادية) فقط وغيره يعرف كل ما يُعرف عن العرب او اليهود او مصر وما اشبه. واليك بعض الموضوعات التي تناولتها مباحث الاعضاء اوردها على سبيل المثال غير جاعل انها لا تمثل الا ناحية يسيرة من نواحي منهاجهم: رسالة حسن البصري في القدر — بحث في لشوء كلمات ساميّة منها ادريس وصورة ودليلة وناداب — مقابلة بين الثمّ عند البابليين واليهود والمصريين القدماء — نقوش سومرية (شمرية) تشير الى الثعبان — بحث في حياة الحصيان في القصور

وعبثاً نحاول وصف دقتهم وايجازهم واجادتهم المعنوية السائدة صناعتهم. فالروح العلمية المرفرفة على بهو الاجتماع كانت حقيقة بالثناء الغامر حتى لاح لي ان افضل ما يقتنيه الشرق من ثروة روحية حرية بالخلود قد انتقل الى هذه الديار النائية فانطلق ابناؤها يتبارون في درسه وتحليله

(1) Julian Morgenstern, Journal of the American Oriental Society, Vol. XLVIII, No. 2, 1928, p. 105.

ولعلّ شغفهم به وانباطهم عليه انساهم ما يحيق بموطنهم من مكاره اقتصادية وما يكتنفه من محن اجتماعية افضت اليها الازمة الحاضرة فتركتهم مركباً خشناً لا تميمه نحن الشرقيين وقد تعوّدنا العيشة البسيطة والقناعة ولم يفتنا نير المعامل والمصانع ولاسطا علينا تيّار المادة الجارف

ومما طالعتهُ رسالة وضعها باحثان من اعضاء الجمعية المذكورة احدهما استاذ في جامعة جونس هوبكنز العظيمة اتفق وادارة ذلك المعهد ان يقضي الشطر الاول من عامه في فلسطين منصرفاً الى البحث الاثري على ان يقفل راجعاً في الشطر الثاني ليتولّى منصبه التدريسي. والآخر استاذ كبير في جامعة بنسلفانيا. وقد اطلق الكاتبان تحت عنوان « الاستعداد لدرس الشرق الادنى وآثاره » ما تستباح الاثرية الجارية في فلسطين من خطر التأنّق على شريطة ان يكمل الدارس استعداده العلمي قبل مبارحة اميركا. ثم خصّا باباً من رسالتهما بالعراق واشارا الى اركان الملمّين بأحواله الجغرافية والتاريخية والاثرية ويؤخذ من كلامهما ان الشرق ينبوع عذب لا يرتوي ظمأ العالم منهُ الاّ اذا جاب اقطاره وشاهد بأم العين ميادين الحضارة الاولى في ربوعه الفتانة (١)

ولمستشرقي الولايات المتحدة مدرستان باروقان في الشرق العربي تقومان باعمال الحفر والتنقيب وهذا بصرف النظر عن وفود البحث الاثري في وادي النيل من امد بعيد. الاول في بيت المقدس والاخرى في بغداد. ولا يُظهر فضل هاتين البعثتين مثل الاطلاع على نتائج اعمالهما التي افضت الى تعديل جانب كبير من تاريخ الشرق القديم وافراغ اخباره في حلة قشيبة. والعدول عن كثير من الحقائق المسلم بها قبلاً وتفسير الشؤون الخطيرة تفسيراً ينطبق على مكتشفات المنقبين الاخيرة

ولا بدّ لنا في هذه الرسالة ونحن نسعى الى تصوير عناية العالم الجديد بالنهضة الشرقية وتاريخها المجيد ونحاول اكتناه ما يساور الرأي العام فيه من آثار الروح السامية من التعرض لمقام اللغة العربية. واول ما يتبادر الى الذهن المساعي الحميدة التي يبذلها العلامة الدكتور فيلبب حتي فما كاد يتسلم ابناء منصبه الخطير في جامعة برنستون حتى انبرى لاعلاء مقام العرب والتفرّغ لبثّ اخبارهم بين متطلعة الاقوام. ولياليت المجال يتسع لذكر اعماله. فانهُ عدا تأسيسه مطبعة عربية وجمعه شتات المخطوطات العربية من بعد ان حشد ما يزيد على الـ ١٥ الف مجلد عربي ثمين في مكتبة الجامعة اشتغل في ادّخار المال الكافي لتنظيم هذه المخطوطات وتولى الاشراف على وضع فهارسها وتقاويمها العلمية. ولا يقف عزمه عند هذا الحد بل انهُ ينوي البدء بمشروع واسع النطاق يستغرق عشرات السنين ويتضمن جمع جميع ما في البلاد من مخطوطات عربية ونشر جانب هام منها. والى كل ذلك فهو يدأب ليل نهار في تأليف كتاب مستفيض في الانكليزية يحوي بين دفتيه تاريخ الامة العربية والمرجح ان يقضي ظهور هذا السفر العتيد الى طور جديد في دراسة الحضارة الشرقية في هذه القارّة ويضاعف العناية بآداب العرب وتراثهم

(1) W. F. Albright, and E. A. Speiser, Suggested Approach to the Study of Near East Archaeology, Philadelphia.

ولا جدال في ان الاوروبيين هم الذين سبقوا الى الفتوحات الباهرة في هذا الشعار فمنهم دي ساسي المتوفى في النصف الاول من القرن الاخير صاحب الايادي البيض على علم اصول اللغة العربية . وبعده قام في القرن ذاته ومن ابناء فرنسا ايضاً اديب قذّ لم يعدم ميوله الى الابحاث العلمية وقائمة مصنفاته وان كانت اليوم مفروغاً منها من الوجهة العلمية الاّ انها لا تزال حلقة مكينة في سلم ارتقاء المشرقيات عند اهل الغرب . نعني الكاتب الطائر الصيت ارنست رينان . فقد ألمّ بتاريخ فينيقية وتوغّل في شؤون بني اسرائيل منعماً نظراته في سفر ايوب وكان قد نشر قبل هذين المؤلفين بحثاً في تاريخ اللغات الساميّة . ومن آثاره « حياة المسيح » و « ابن رشد وعقيدته » وسواها مما هو معروف لدى القراء . وأما المستشرق الالماني تيودور نولدكه فانه شيخ المستشرقين قاطبة وُلد سنة ١٨٣٦ ومات عن عمر كبير وآثار خالدة في مختلف العلوم الشرقية التي تناولها وكانت ميوله جامعة شاملة فلم يهمل زاوية من زوايا المشرقيات بل طرقها كلها وصار حجة فيها

وفي مرتبة هؤلاء يعد العلامتان هرغرونيه ودي غوبه وهما لا يقلان تدقيقاً وتنقيباً وهذا الاخير حسبه ما نشره من تاريخ الطبري في مجلدات سهلة المأخذ زينها بالفهارس والحواشي العلمية

ومن المعاصرين الانكليز علمان يجدر بنا الاشارة اليهما احدهما استاذ في جامعة كامبردج والآخر في أكسفورد اعني نكلسون وندّ مرغوليوث . اما الاول فأشهر مؤلفاته تاريخ الآداب العربية وله سوى ذلك ما يستحق الذكر مما نقله من الشعر الشرقي . وللاستاذ مرغوليوث جولات معهودة يشهد له فيها بطول الباع وقد أصدر تاريخ الدولة الاموية والدولة العباسية في لغته الخاصة نقلاً عن سلسلة جرجي زيدان التاريخية . الاّ ان درس المؤلفات الشرقية التي يصدرها المستشرقون منذ اكثر من قرن يحملنا على الاقرار للالمان بقصب السبق . ولكن احداث السياسة الاوربية والتضييق الفكري الذي يعانيه العلماء يحملان على الظن بان النشاط الفكري في اوربة في هذه الموضوعات التي لا يمكن ان تنهض الاّ في جو ملائم للبحث الحر سيتأخر لما انتاب حرية البحث في بعض بلدانها من مآس جسام

ثم ان عدد الفحول الالمان الذين أمّوا هذه البلاد على أثر الانقلاب الاخير يدعم قولنا . أو لم يهبط بعضهم ارض الاتراك كذلك طلباً للسكينة والامن . ومنهم من عجر مسقط الرأس قاصداً الى اميركا ولو لم يكن ممن استهدف لسهام الاضطهاد ، طامعاً عما في المهجر من بحبوحة العيش ووسائل النمو العقلي وسبل العمل الحرّ فما تقوم عليه النزعة الجديدة في الولايات المتحدة من الاعتناء بشؤون الشرق العلمية وما يغدقها من سبول صادقة لا تحفزها المطامع الاقتصادية والسياسية مضافاً الى ما يعتور الحياة الفكرية في القارّة الاوربية من الصعاب ينذر بانتقال معقل المشرقيات الى ما وراء بحر الظلمات في المستقبل غير البعيد

ولا ريب في انهُ اصبح لبلاد العرب ولغتهم وامتهم مكانة لم تعهدها من قبل . اما على شأن البلاد فلان اجماع رأي العلماء يميل الى حسبانها مهد الساميين . واهمية اللغة العربية راجعة الى كونها

مفتاح الفيلولوجيا السامية . واما مقام الامة فلانها ابقى العناصر التي يتمثل فيها الجنس السامي ولقد آلت هذه النظرية الجديدة الى قلب الاصول التي كان يتشبث عليها العلماء في درس التوراة . واول من مهد السبيل الى هذه الفكرة Spencer في القرن السابع عشر ثم تمّ Schultens فأيّده رجال في وضع حجر الاساس حتى اذا ما جاء القرن التاسع عشر تمّت الفكرة الجديدة على يد العالمين Wellhausen و W. Robertson Smith وقبل عشر سنوات ظهر كتاب الاستاذ مرغليوث احتوى ثلاثاً من محاضراته تحت عنوان « علاقات بين العرب والاسرائيليين قبل نهوض الاسلام » ابان فيه كثيراً من الغوامض واثبت ان الشيء الكثير من تاريخ العبرانيين وآدابهم يسهل فهمه اذا درسناه بعد الفام النظر في اللغة العربية ولغة عرب الجنوب

ثم كانت السنة الماضية فأصدر العلامة الاميركي مكدونلد كتابه في « عبقرية العبرانيين الادبية » وذهب فيه الى ان آداب اليهود لا زالت على مرّ السنين مدينة في تكوينها للغة الضاد وتوسع في مباحثه فجعل حياة النبي داود واشعاره شبيهة بسيرة امرؤ القيس وقصائده ضارباً امثالاً كثيرة على القارىء اللبيب ان يرجع اليها لرؤية ما يتوسم فيه من تشابه بين الشعبين . وقد قال هذا العالم ان مفسري العهد القديم في السنين المقبلة يجب ان يكونوا من الواقفين على متون اللغة العربية

واخيراً ظهر مؤلف للاستاذ مونتغمري سماه « الجزيرة العربية والتوراة » اتى فيه بحقائق ثابتة وآراء طريفة تؤكد ما يقبله العقل وتفرّد الشواهد التاريخية والعلمية ان فهم تاريخ اسرائيل لا يمكن ان يتمّ الاّ اذا تمكن الطالب من تفهم احوال الجزيرة . وقد دفع المؤلف اقواله بمستندات فيلولوجية وتاريخية ولا غرو فهو من اساطين العلمين ثم تطرّق الى تفصيل قضية المناخ في الجزيرة وازدياد الجفاف فيها على مرّ السنين والقرون ثم عرض لعلاقات العبرانيين التجارية بأبناء البادية وطرق باب الحكمة العربية وقابل بين هذه وما يجده الباحث في صفحات ايوب والامثال ثم عكف على الاسباب التي ادّت الى افول نجم العز في جنوب الجزيرة بعد تألقه ردحاً طويلاً من الدهر في العصور القديمة وتخلص بآرائه حصينة في اثر السحراء الجلي الظاهر في ديانة العبرانيين

ومهما يكن من امر فان العناء بالشرقيات في هذه الديار لهو مقرون بقسط وافر من التشجيع والتنشيط ويؤمل ان يظفر بمقام يليق به وبالشرق الذي اوجده . وهاك كلام احد ائمة العلم الذين يؤبه لهم قال « يجب ان ندرس الشرق لانهُ لا يزال مبعث النور والالهام ويجب ان نُعنى بتفهّم تعابير الساميين لان اللفظة من العاظيم اشبه شيء بشحنة الكهربا التي يحار الفهم في قدر قوتها والاحاطة بماهية طاقتها . هكذا تعجز السنتنا الغربية عن ازاحة الستار عن المعاني السامية وفقه مكنوناتها لانها ذات مرام بعيدة تستعصي علينا ولا عجب فهي متصلة باعماق النفس ولا سبيل الى سبر غورها الاّ بعد امعان شديد »

جامعة بنسلفانيا — الولايات المتحدة ادورد جرجي